

سرالسؤال السقراطي

د.محمد ممدوح على عبد المجيد*

تمهيد :

لا يزال سقراط لغزاً محيراً حتى اليوم، لا يزال مثيراً للتساؤلات والدهشة بنفس الطريقة التي كان يعالج بها منهجياً الأخطاء الآثنية، لا يزال يبعث في النفوس اليوم الحيرة والدهشة ، بذات القدر الذي بعثهما في نفوس مواطنيه، لا يزال يحيي في النفس قيم البحث عن الحقيقة والجوهر، بنفس الإحياء الذي تركه في نفوس الصفوة من قومه، لا يزال يبعث في النفس الأمل في الوصول إلي الحقيقة المطلقة، بذات الأمل الذي تركه في نفس أفلاطون في إمكانية تجاوز البشر لمرحلة البشرية،... لا يزال يبعث في النفس الأمل في التغيير ، بنفس القدر الذي تركه في نفوس صغار السقراطيين،... لا تزال فلسفته تثير المتاعب وتطرق أبواب الأطروحات الجديدة، بذات القدر الذي أثارته في حياة صاحبها .

فهل يمكننا القول أننا بحاجة اليوم إلي فهم سقراط؟ أو بمعنى أدق، هل يمكننا الوصول إلي مبادئ عامة وأطر واضحة المعالم لفهم الجوهر الحقيقي والسر الكامن وراء السؤال السقراطي؟

إننا بحاجة إلي ذلك قطعاً، بحاجة إلي استلهم مبادئ سقراط الماضية لبنى عليها مستقبل الأجيال القادمة، بشيء من الشفافية، وبشيء من المصادقية، حيث أنه كلما كانت النظرة إلي الماضي أكثر عمقاً وشمولاً، كلما كان فهم الحاضر أشد عمقاً، وكلما شُيدت قواعد المستقبل .

إن بعث هذا التساؤل حول سرالسؤال السقراطي من جديد، لهو بعث للجوهر دون العرض، بعثاً يريد الوقوف على مادة البناء، لاعلي شكل

أو حدود المبني، لعلنا نستطيع بعث رفاة تلك المبادئ من جديد، ولعلنا نستطيع التأسيس عليها بقوة مستقبلاً واعداءً يجلب لنا إحترام الجميع.

نريد أن نستفيد من الماضي ونضعه أحجاراً كريمة وعظيمة في بناء المستقبل ، يقول هيجل " إن الدرس الوحيد الذي نستفيدة من التاريخ هو أن أحداً لم يتعلم من التاريخ"⁽¹⁾. فهل يمكننا أن نتخطى هذا القول زمنياً وعملياً، هل يمكننا أن نُخطئ هيجل منهجياً في هذا القول، لنثبت له أن قوله يقتصر فقط علي زمانه، هل يمكننا الإستفادة من فلسفة ورؤية سقراط، وبعثها في ثياب جديدة تحترم الكم اللامتناهي من المدنية والحضارة التي توصل إلها الإنسان .

في الإجابة علي تلك الأسئلة تكمن أهمية هذا البحث، حيث يحاول التأصيل لمفاهيم ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وحيث يحاول بعث المفهوم الأصيل الذي كان يبعثه سقراط ضمن محاولات التأسيس لفلسفة واقعية. ولعل هذه الدراسة تثير العديد من الإشكاليات التي نحاول الإجابة عليها من قبيل:-

- 1- لماذا يؤرخ بسقراط، ما قبل، وما بعد ؟.
 - 2- هل يمكن أن ننسب إلي سقراط بطولية لم يفعلها؟ وإنما فقط كان شاهداً عليها؟.
 - 3- كيف ينال سقراط كل هذه الشهرة في زمن خطباء مفوهين كالسوفطائيين أليس هذا لغزاً؟.
 - 4- ما هو جوهر الخلاف بين سقراط والسفسطائيين؟
 - 5- ما مدي الصلة بين العقل والنقل؟ ، أو بمعنى آخر بين الفكر والوحي؟.
 - 6- هل يُعد سقراط إجمالاً إشكالية فلسفية؟.
- وسوف يحاول الباحث الإجابة علي هذه الأسئلة من خلال التعرض للفلسفة السابقة علي سقراط، ومدي تأثيرها علي سقراط، ثم محاولة

التأصيل لمنهج السؤال السقراطي وجوهره، ثم بيان الفوارق بين الجدل السقراطي والجدل السوفسطائي.
أما عن المنهج المستخدم فهو المنهج التحليلي المقارن، حيث يتناسب مع طبيعة هذه الدراسة.

أولاً: من الميتافيزيقا إلي الحقيقة

إن تقدم الشعوب مرهون بمدى وعي مواطنيها، ولعل التساؤل الذي أثاره العديد من الباحثين حول الصبغة اليونانية للفلسفة كما وكيفاً قد أثار ظلماً كبيراً علي مرحلة الوعي الإنساني، إذ أن البحث التاريخي للفلسفة لا يهدف إلي إثبات ذاته كبحث تاريخي وكهدف في حد ذاته، ولكنه يهدف إلي تقديم حلول للمشكلات المتعلقة بماضي التفكير الفلسفي ومحاولة تنظيمها في أطر عامة وواضحة (2).

ولأن الفكر عامل مشترك بين جميع أبناء بني البشر، ويتميزون فيما بينهم في هذا العامل بإمكانيات طفيفة بحكم الإكتساب لا الفطرة، فإن الأفكار تسلم نفسها إلي بني البشر للتواصل والتطوير، بحيث تتحرر الفكرة من ربة صاحبها وتغدو ملكاً عاماً للبشرية كلها، تفيد منها أنى تشاء، ومتى تشاء، يقول إيفاجيلوس "وإذا كانت الأفكار هي العناصر التي معها تعيش فلسفة ما داخل نظام فلسفي مستقبلي، حتى وإن كانت الثانية مختلفة تماماً عن الأولى، فسيكون من الممكن وتحت شروط محددة أن تظل كل فلسفة حية بسبب فهم لاحق لها وفهم آخر لاحق عليها، وهكذا، أمر تكون معه تلك الفلسفة دائماً علي مسرح الاهتمامات الفلسفية" (3).

وإذا أردنا الدقة في منطلقات الفلسفة السقراطية، فلا بد وأن نخرج على سببين أراهما شكلاً ولو بعض الشيء فكر سقراط، وتركاً عليه بصمة قوية، وهما تلك الأساطير التي سبقت عصر الفلسفة، ثم ذلك

الإتصال الذي تم عبر الزمان بين مكانين مختلفين عرضاً وجوهرًا، ذاك هو الإتصال بين اليونان والشرق.

1 - الأساطير اليونانية: كانت المرحلة الأسطورية عند اليونان بمثابة المخاض العسير للفلسفة (4) إذ أن الوصول إلى فكرة معينة أيسر بكثير من تحويل مسار فكر سابق ليتطابق واتجاه معين، سواء كان براجماتياً أو ميتافيزيقياً. وبظهور الأساطير عند اليونان، ظهرت مرحلة تحويل مسار التفكير بعد ذلك علي يد سقراط (5).

وعلي الرغم من المشتقات التي تركها التفكير الأسطوري علي مراحل الفكر البشري، إلا أن تلك المرحلة كانت ضرورية لميلاد فكر يتسم بالعقلانية، ورغم ذلك، فإنه لا ينفي أبداً العيوب التي تركتها الأسطورة، حيث أنها ألغت المنهج العلمي السليم، وحيث أن التفكير الأسطوري هدم جميع الفوارق بين الذات والموضوع، يقول موتسبولوس "أنه مع التفكير الأسطوري أصبح من الممكن تدمير العلاقات القائمة بين الذات والموضوع، بل والعلاقة بين الزمان والمكان أصبح من الممكن إعادة تنظيمها وإعادة بنائها، هكذا أصبح ما يبدو مشابهاً لشيء آخر ليس بالضرورة مشابهاً له في الحقيقة، وكل ما يبدو مختلفاً مع شيء آخر ليس بالضرورة مختلفاً معه، العلاقة بين الأشياء بعضها وبعض أو بين الأشياء والإدراك أو بين إدراك وإدراك آخر ليست (في العقلية الأسطورية) محدده وواضحة" (6) أضف إلى ذلك أن هناك فارق كبير بين الأساطير البدائية، والأساطير التي يبتكرها خيال الأطفال، حيث أن المجتمعات البدائية متبلورة بسبب دياكتيك ما يتخذه من الأسطورة كركيزة لها، وبفضلها تكون تلك المجتمعات قائمة وثابتة، أما أساطير الأطفال فتهدف إلى ربط مؤقت لمجتمع الأطفال، ذلك المجتمع الذي يمكنه أن يغير منها من أجل أن يغير من نفسها وتحاول أن تتلاءم مع البناء الجديد للمجتمع (7)

لكن السؤال الآن، ما علاقة سقراط بالمرحلة الأسطورية عند اليونان؟؟ والإجابة تتجه في شقين، أحدهما ميتافيزيقي، والآخر واقعي، أما الأول فهو أن الأساطير كانت تبرز قيمة القوى الخفية، أو بعث أفكار جديدة تخاطب الضمير بشأن الإله والأبطال القدامى، وهو ما ترك أثره على سقراط في نظريته في الألوهية⁽⁸⁾.

وأما الشق الآخر، فهو أن تلك الأساطير أمدت سقراط بالقدرة الذاتية على الانتقال من النقل إلى العقل، أو من الخيال إلى الواقعية⁽⁹⁾.

2- بين اليونان والشرق: لعل ارتباط الفلسفة اليونانية بالمقدمات الفكرية الشرقية لا يزال مثار الجدل حتى اليوم، فلا تزال تلك القضية محل خلاف بين المفكرين العظام، ففى حين يؤيد بريت الأثر الشرقي المباشر على الفلسفة اليونانية، ينفى الدكتور عبد الرحمن بدوي هذا التأثير نفياً باتاً⁽¹⁰⁾ في ذات الحين يؤكد الدكتور النشار ويورد عليه الدلائل والآثار التي تركتها الفلسفة الشرقية على الفلسفة اليونانية، ولعل المكتشفات الأثرية تبرهن على ذلك، يقول الدكتور النشار "ومن خلال هذه المكتشفات الأثرية وفك رموزها اللغوية وترجمتها إلى اللغات الحديثة، بدأت تتبلور منذ القرن الماضي صور واضحة المعالم لفلسفات الشرق القديم، وبدأ اكتشاف جوانب العلاقة بينها وبين بعضها، أو بينها وبين الفلسفة اليونانية التي لم تظهر إلا في القرن السادس قبل الميلاد متأثرة بالطبع بالفلسفات الشرقية القديمة من خلال وسائل الالتقاء الحضارية بين شعوب العالم القديم، سواء كانت الرحلات والأسفار التي كان يقوم بها الأفراد ومنهم الفلاسفة أنفسهم، أو من خلال العلاقات التجارية والاقتصادية، أو من خلال الاختلاط الاجتماعي والهجرات التي كانت بين اليونان وبين بلاد الشرق القديم، فالمعروف أن مستعمرات يونانية قد خصصت بالكامل من قبل الملك أبسماتيك المصري للجاليات اليونانية في مصر القديمة، ومن المعروف كذلك أن الفرس قد غزوا مصر وبلاد اليونان قبيل وبعد ظهور الفلسفة عند اليونان، ومن المعروف أيضاً أن علاقات تجارية وثيقة كانت تربط بلاد

اليونان ببابل وليديا، وبين هاتين ومصر وفارس" (11).

ونتيجة لهذا الإتصال بين اليونان وبلاد الشرق ممثلاً في مصر وبلاد الرافدين، فقد تركت تلك الأفكار نزعة صوفية تأثر بها سقراط في مأكله وملبسه لدرجة جعلته يعيش ملاكاً بين البشر، أو إن صح التعبير، فقد كان بشراً لا تعتريه حوائج البشر (12).

ثانياً : التحول الفلسفي :-

هل يمكننا أن نترك لخيالنا العنان لنفكر مع فيلسوف الثورة العظيم روسو، ماذا لو لم يكن سقراط ؟

كانت الفلسفة عبارة عن أساطير، تسري فيها الروح الشرقية وترتدي الثياب اليونانية، ولما أراد اليونانيون أن يرتقوا خطوة في محاولة الوصول إلى العقل المطلق (13) حاولوا البحث في الأصول الأولى للكون، فيما عُرف بإسم فلاسفة الطبيعة الأوائل، ولكن كل تلك الفلسفات تركت أثراً على سقراط ليحول مجرى التفكير الفلسفي، وليقود ثورة ضد الأساطير، وضد البحث في الطبيعة (14)، ليُعطي بذلك قيمة الإنسان، وأنه الموجود الوحيد الذي يستحق التفكير لأجله، لأجل صياغة حاضره وصناعة مستقبله واستشراف مصيره، تقول الدكتورة هدى الخولي " لقد تحولت الفلسفة مع سقراط من البحث في الطبيعة إلى البحث في الإنسان، أو إن شئت من الكون الكبير إلى الكون الصغير، أو ربما كما وصفه البعض أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، ليفتح آفاقاً جديدة أمام حرية الفكر والإعلاء من مكانة الإنسان داخل هذا الكون الملعن، فإن كان هم الفلاسفة من قبله أن يفسروا الكون، فقد جاء معلم أفلاطون ليرشدنا إلى حقيقة أن الإنسان هو من يملك مفاتيح الكون، وهو الذي يلغزه، وهو الذي يقدم الحلول لفك طلاسمه" (15).

أضف إلى ذلك، المجهود الضخم الذي قام به سقراط في استقاء عناصر الجودة من الأفكار السابقة عليه، وكيفية إعادة صياغة الفكر البشري

بأسره، يقول الدكتور النشار "كان سقراط وهو الذي حول تلك الاتجاهات الفكرية المتناثرة إلى فلسفة محددة المعالم، وإليه يرجع الفضل في كل التطورات التي تمخضت عنها هذه الفلسفة، فقد أثرت شخصيته النفاذة في أقوام أخص ما يكونون تبايناً في طباعهم وأخلاقهم، ومن آرائه اشتقت أفكار واستُخلصت نتائج جد متعارضة فيما بينها من الناحية المنطقية، ومن الواضح أنها جميعاً مستمدة من شخصية سقراط"⁽¹⁶⁾.

لقد صاغ سقراط مجرىً ملاحياً جديداً للفلسفة، حيث عدل مسارها إلى الأبد، ولكي نقف على سر هذا السؤال السقراطي، لابد من الوقوف على عدة محاور كالتالي:-

أ- منهج السؤال . ب- بين الحكمة والخرافة .

ج- بين الجدل السقراطي والجدل السفسطائي . د- اللغز المحير .

وتفصيل ذلك فيما يلي:-

أ- منهج السؤال: لقد كان السؤال قبل سقراط يسير على نمطية "من أين تأتي الفضيلة"، وجاء سقراط ليتساءل "ما هي الفضيلة"⁽¹⁷⁾، إذاً السؤال اختلف كيفاً، كذلك يذكر ستون أيضاً، أنه كثيراً ما كان يقال لسقراط "أنت لا تفعل شيء سوى أن تجد في كل مكان صعوبات، وأن تسبب صعوبات للآخرين"⁽¹⁸⁾.

في البدء، حير سقراط العقل في فهم منهج سؤاله، ولأن أبيه كان نحاساً وأمه كانت قابلة للنساء، فقد تركا أثراً واضحاً فيما يبدو عليه، من الناحية المنطقية وليس من الناحية البراجماتية⁽¹⁹⁾، تقول الدكتورة هدى الخولي "ويبدو أن مهنة والدي سقراط كان لها أثراً كبيراً على الفيلسوف، والذي يظهر في تاريخ الفلسفة كنحات للعقول وكمولد للمعرفة في ذات الوقت"⁽²⁰⁾ وصُغ سقراط بالصبغة المنطقية لهاتين المهنتين، فكان يعتمد في سؤاله على منهجي التهمك والتوليد، ولعل ذلك يرجع إلى ثلاثة أسباب⁽²¹⁾

الأول :- أنه ربما كان يريد الوصول إلى حقائق وجواهر الأشياء المسئول عنها.
الثاني :- أنه ربما أراد توليد المعرفة لدي الآخرين بحكم عقيدته بفطرية المعرفة وعدم إمكانية تعلمها.
الثالث:- أنه ربما أراد أن يصل إلى حقيقة واحدة مؤداها " أنه لا توجد حقيقة " .

ووفق هذه الأطر الثلاثة سار السؤال السقراطي وبالأعلى المسئول (22)
لأنه كان يعلم مقدما أنه لا محالة مهزوم، ويعلم أنه لا يمتلك معرفة حقيقية يمكن أن تُشبع نهم سقراط إلى المعرفة. ولأن الأسئلة السقراطية لم تكن ذات دلالات تفسيرية واحدة، بمعنى أن هناك من يفسر الأسلوب السقراطي بأنه تهكم دائم لا جد فيه؛ وهناك من يفسر الأسلوب بأنه جد لا تهكم فيه؛ وهناك من يفسره بالحكمة المطلقة لصاحبها؟ ومن يفسره بالعرفة والكهانة ومس الجن؛⁽²³⁾ وفي الحقيقة، لم يحد أي تفسير من تلك التفسيرات على الصحة المطلقة، وهو ما يدعونا إلى البحث عن كنه ذاك السؤال بين الحكمة والخرافة .

ب- بين الحكمة والخرافة :- قيل من قبل، أن الألهة تنبأت بأن سقراط هو الحكيم الأوحى في المدينة؛ فهل أخذ سقراط تلك النبؤة على محمل الفخر، واستند إلى أسسها الراسخة كونها خرجت من الآلهة، وهي لها مالها في قلوب اليونانيين⁽²⁴⁾ إنه كان يكفيه أن يعيش حياة رغده ارتكازا على قواعد تلك النبؤة؛ ولكن تلك النبؤة لم تزده إلا بحثا عن الحكمة، وإصراراً على طرق أبواب المعرفة؛ فأراد أولاً أن يثبت صدق الألهة، ثم أراد ثانياً أن يوضح كنه تلك النبؤة....؛

لقد أخذ سقراط النبؤة على عاتقه، وأخذ يسأل أدعياء الحكمة، وأدعياء العلم، الذين اشتهروا بعظائم الصفات، وليس ذلك لأجل امتحانهم فلم يرد ببال سقراط هذا الأمر في بادئة النبؤة⁽²⁵⁾، ولكنه فقط أراد أن يتحقق من صدق النبؤة ومدى شفافتها، فكان يمتحن هؤلاء الأدعياء لأجل

أن يصل إلى ينابيع الحكمة في أحدهم، فيأخذه ويذهب إلى الإله ليقول لهم "ها أنتم حكمتكم بأنه لا يوجد من هو أحكم مني، ولكن الحقيقة أثبتت عكس ما تقولون، فهي هو ذا أحكم مني"⁽²⁶⁾ ولكنه لم يصل إلى بغيته، لم يحقق أمله، لأن العكس تماماً هو ما تحقق. لقد وجد في هؤلاء الأدعياء جهلاً مطبقاً، وجدهم لا يعرفون من الأشياء سوى مسمياتها، ولا يعرفون شيئاً عن مناهج العلم، ولا يعرفون من الأمور سوى قشورها؛ ولأن سقراط كان يريد تعريفات محدده لجواهر الأمور، كان يريد إرساء مفاهيم عامة، فلقد استخدم منهج الاستقراء⁽²⁷⁾ مريداً بذلك إرساء المبادئ الأولى للعلم الصحيح.

لكن إذا كانت نبؤة الإله صادقه، وبالفعل لا يوجد من هو أحكم من سقراط، فما هو جوهر تلك الحكمة؟ يقول سيرون "الحكماء هم الذين امتلكوا زمام العلم والقسط والتواضع، وسقراط في حكمته جمع بين ثلاث صفات، لدرجه تجعلني لا أقول أن سقراط كان حكيماً، ولكن لأقول إنه كان أحكم الحكماء"⁽²⁸⁾ لقد تمثلت حكمة سقراط كما يجملها هو ذاته في جملة واحدة رائعة يقول فيها "أنا لا أعلم، وأعلم أنني لا أعلم، في حين أن غيري لا يعلم، ويجهل أنه لا يعلم"⁽²⁹⁾ ذاك فقط هو الفرق بين ما يمتلكه سقراط، وما يمتلكه غيره من الأدعياء، ولا شك أن هذا الملك كبير لأن بداية المعرفة هو الإقرار بالجهل، ولعل سقراط كان فطنا لذلك إلى حد بعيد لدرجه تجعلني مؤمناً أشد الإيمان وموقناً أشد اليقين أن كل حرف كان ينطقه كان ينم عن حكمة بالغة، وليس للخرافة فيه أدنى نصيب.

د- بين الجدل السقراطي والجدل السوفسطائي :- إن الباحث فيما كتب عن سقراط يجد أن العديد من المؤرخين يصفونه بأنه كان مجادلاً، وليس هناك أدنى فرق بينه وبين السوفسطائيين، بل إن البعض يصنفه سوفسطائياً؛ في حين أن البعض الآخر يصنفه العدو اللدود للسوفسطائيين، ثم نجد فريقاً آخر يتناول سقراط من العرض، من القشرة، لا يذهب إلى الجوهر، ولا يطرق باب اللباب، مما أوقع العديد من أولئك في أخطاء، هي

على الأقل منطقيه وإن كانت تبدو سليمة من الناحية المنهجية.... هل يمكن لعقل أن يصدق أن سقراط لم يكن سوى مجادلاً مثله مثل السوفسطائيين؟⁽³⁰⁾.

هل تصدق الصورة التي أبدعها الخيال البديع لأرستوفانيس وهو ألد خصوم سقراط.... إن أقل ما يقال عن سقراط، إنه بمنهجه أراد البناء الحقيقي والتأسيس الشامخ للعلم الجوهري ، لقد أراد أن يضع الأمور في نصاب حقيقي وعام، ذات مقاييس محددة، ومفاهيم واضحة ؛؛ أراد أن يبني جيلاً من الشباب قادراً على طرق أبواب المعرفة، يمتلك الهدف من سعيه وآلية الوصول إلى ذلك الهدف، ولم يكن هناك هدف عند سقراط أسى من طرق أبواب المعرفة الحقيقية ؛؛⁽³¹⁾.

لم يكن السؤال السقراطي يهدف إلى الجدل لذات الجدل، ولكنه كان يتخذ الجدل وسيلة للوصول إلى غاية العلم الحقيقي والمفاهيم المحددة⁽³²⁾ لم يكن سقراط كما يصوره البعض ساخراً من أوطيفرون أو لايخيس أو غيرهم ممن سألهم عن المعاني الحقيقية للأشياء؛ ولكنه كان مولداً للحكمة والمعرفة .:

ذاك كان هدف سقراط.. فما هو هدف السوفسطائيين؟ .

لعل الإنصاف يقتضى ألا نسلب عن السوفسطائيين كل معاني البناء وننسب إليهم كل معاول الهدم، لأنهم بوجه أو آخر أثروا الحياة الفلسفية اليونانية، وشاركوا مع سقراط في تعديل مسار الفلسفة إلى الأبد وإن كانت تلك المشاركة بالسلب، إلا أنه لا يمكن نفياً عنهم بوجه من الوجوه ؛⁽³³⁾ لكنهم على أي حال كانوا يقصدون في أغلب الأحيان الربح المادي فكانوا يعلمون الناس كيف يثبتون صحة القضية وعكسها في ذات الوقت، وهو لا شك فعل السحرة، الذين يسحرون الأعين ويستريحون النفوس ، أو فعل السوفسطائيون البارعون في الجدال دون هدف ودون بناء؛.... قطعاً للسوفسطائيين نصيب كبير من صحة هذه التهمة، وقطعاً أرادوا

الشهرة بالإتيان بغرائب الأمور، وعلى الرغم من محاولة بروتاجوراس تبرير جشعهم بقوله "حينما يريد أحد أن يتلمذ على فإنه يدفع الثمن إذا أراد، ولا إجبار في ذلك، وإذا لم يرد فعلية أن يذهب إلى المعبد ويأخذ على نفسه عهداً بتقدير قيمة التعاليم ولا يدفع أكثر مما يعلن أنه قيمتها⁽³⁴⁾، فقد برر هذا التبرير منطقياً لكنه ليس له أدنى قيمة من الناحية العملية.

إذن الجدل السقراطي كان يهدف إلى إرساء دعائم حقيقية للعلم الموضوعي، في حين كان الجدل السوفسطائي بحثاً عن لقمة العيش⁽³⁵⁾ فهل يُعد البعد بين المنهجين، والفارق بين الغايتين لغزاً محيراً ومستعصياً على الفهم؟: الإجابة على هذا السؤال تقتضى التساؤل أيضاً، هل كان سقراط يبحث في المحدد، أم في المطلق، أو بمعنى آخر هل كان يهتم بإضفاء جوهر الفكر على الفكرة؟ أم يهتم بمضمون الشئ عن ظاهره...

هل يمكننا الوصول إلى إجابات شافية لتلك الأسئلة، وهل يستطيع أحد هدم تراث سقراط، يقول وورنر "إنه بالرغم من الصعوبة البالغة في الوصول من بيانات أفلاطون واكزينوفاون إلى من هو سقراط في الواقع، إلا أنه يتضح لنا أننا أمام شخصية مختلفة تماماً والاختلاف عن أي شخصيه ظهرت قبله فهو غير عادي من خلال كونه عادياً وذائع الصيت من خلال كونه اثينياً، ومتدين من خلال منهج الشك وحكيم من خلال تظاهره بالجهل، ومع ذلك لا نجد في شخصيته وسلوكه وآرائه أي متناقضات، هو في مجموعه كل متجانس، شخصيته دائماً شخصية مؤثرة بل إن المرء يشعر لو أن فنناً عظيماً مثل أفلاطون أراد أن يشوهها لما أمكنه ذلك، كانت شخصيته شخصيه فرضت نفسها على من خلفوه، كما لم تفرضه شخصيه أي فيلسوف غيره⁽³⁶⁾ إن محاولات سقراط المستميتة لأجل الوصول إلى حقائق وجواهر الأمور، هي محاولات منهجياً تُعد سابقة للزمان ومتخطية لحدود الفكر البشري، وسقراط هو بطل ذلك المنهج الذي أعلى من شأن العقل والقيم وربط بينهما في رباط واحد، يقول وولف "فسقراط

هو كل وأسلوب قبل أي شي نظرة معينة إلى الأشياء وإلى الآخرين وإلى ذاته، إنه وقار مبتسم ومع ذلك فيه رقة ملحاحة وتواضع واثق من نفسه، هيئة لا يبدو عليها الاهتمام وتصل دائماً إلى ما هو صحيح⁽³⁷⁾ إن أقل ما يقال عن ذلك الأسلوب السقراطي أنه أقام ثورة ليست في تعديل مسار الفلسفة فقط وإنما في آليه البحث عن جواهر الأشياء، أضف إلى ذلك المنهج الذي استخدمه لأجل تحقيق تلك الغايات، إنه دائماً ما كان يصيح قائلاً بأنه لا يعرف شيئاً وأنه ليس لديه ما يُعلمه، وليس عنده أى فكرة فى رأسه، وهو يستجوب هكذا ببراءة وبدون رأى مسبق⁽³⁸⁾ ولعل ذلك المنهج هو ما أثار التساؤلات حول سقراط وحول غايته وحول مصيره المحتم فإلى أين سيقود المنهج سقراط - إلى التهكم ؟

ولكن التهكم لذات التهكم لم يكن أبداً هدفاً لسقراط؟؛ أليس ذلك المنهج يُعد حائلاً دون الفكر الدائري يهوى إزعاج الضمائر وإفزع الرؤوس الممتلئة تماماً ؟ هل يمكننا اختزال سقراط كله، بعقريته الفذة في هذه التساؤلات؛ ثم لماذا كل هذه الضجة حول سؤال سقراط عن معنى الشئ ؟؛ ربما يقال إننا لو أردنا الدقة فعلينا بالرجوع إلى القاموس ليعطينا المعنى الصحيح؛ ولكن ليس المقصود هو المعنى اللغوي البحث الذي يعطينا القاموس إياه، وليس المطلوب هوس شفهي نحوي؛ لم يرد ذلك ببال سقراط ولكن كل ما أراده هو البحث عن الجوهر الحقيقي للشئ من أجل حسن التوجه والعمل، من أجل تأسيس مسلك قوي يهض من أسس عقليه لذلك، لأن معظم الإجابات التي كان يتلقاها سقراط كانت توضيحاً للشئ، وليست استقصاء حول جوهره فإن سقراط لم يكن يرضى عنها، بل كان يخبر الجميع أن كلا الطرفين يجهلان الماهية جهلاً عميقاً⁽³⁹⁾ يدلنا على ذلك مثلاً سؤال سقراط عن ماهية الشجاعة، فيجيب لا خيس بقوله "عندما يظل الجندي شجاع"...

في حقيقة الأمر لا يوجد من ينكر هذا التوصيف، لكنه للأسف توصيف قشري، لا يلبث أن يذوب وسط العديد من التوصيفات المشابهة، ولكن سقراط يبحث عن الماهية، يتساءل عن الجوهر، عن المضمون، لا عن الشكل، وكأنه يريد إجابته تقول له "الشجاعة هي الثبات على المبدأ مهما تغيرت المواقف" فإذا ما قيل مثل هذا التعريف فإنه يخاطب العقل ويلوذ بالجوهر مباشرة لا أن يخاطب العاطفة المتقلبة ويلوذ بالعرض⁽⁴⁰⁾ إن الحقيقة التي لا مرء فيها أن سقراط لا يؤمن بالمفاهيم السطحية، ولا يريد أنصاف الحلول وتالياً تجد تشابهاً واضحاً في طرح السؤال ونهاية الحوار فما فعله مع لا خيس حول الشجاعة، فعله مع خارميدس حول الحكمة وفعله مع أوطيفرون حول التقوى، وفعله مع غيرهم حول مفاهيم أخرى، وانتهت به هذه الحوارات إلى نتيجة واحدة مؤداها "ألا احد يعرف شيئاً عن حقيقة أو جواهر الأشياء" ⁽⁴¹⁾..

لقد أراد سقراط البحث عن الخطوط الرئيسية، والمبادئ العامة والجواهر الأصلية للشيء موضع التساؤل، حتى يعلم الجميع حقيقة هذا الشيء ويضعوها لها مقياساً من عقولهم، فإذا ما حادوا عنها قليلاً إيجاباً أو سلباً، إفراطاً أو تفريطاً فإنهم لا يزالون في محراب المضمون، ولم ينفكوا عنه ، وتالياً فهم في حاجة إلى المرونة والتوجيه طالما أنهم لم يفقدوا الطريق، إنه يمكننا القول، أن السؤال السقراطي فتح أبواباً كثيرة أمام العقل المطلق، العقل المجرد عن الشهوة والنفس والهوى، لعل ذلك هو ما جعل سقراط حياً إلى اليوم، ليكون حكيماً بامتياز، في كل زمان ومكان، يقول وولف "إن سقراط هو الحكيم بالإمتياز الذي يكيف حياته مع مثل أعلى عقلاني وتحقق فيه كما المعجزة، الفضائل الكنسية كلها، التحكم بالذات والاعتدال، والاستقامة والانضباط والنزاهة واحتقار القيم المادية وقد نتعب من تعددها خوفاً من أن نكون مثاليين" ⁽⁴²⁾...

لكن السؤال الآن ما جدوى سقراط ؟؟ أو بمعنى أدق، ما فائدة البحث في سر السؤال السقراطي؟، هل يمكننا إعادة اكتشاف سقراط من جديد ،

هل تصحوا البشرية يوماً على صوت العقل يناديها "انشروا بنى البشر الحقائق لذاتها، وابحثوا في المضمون والتمسوا الجوهر"، هل تتجه الفلسفة نحو واقعية دياكتيكية جديدة يمكنها بعث الماضي والنفخ فيه من روح الحاضر وانتظار المولود السعيد لهذا الجهد الكبير في المستقبل

لعل ذلك ليس مناصاً للأحلام، ولعل الجميع يدرك اليوم جدوى سقراط، يقول الدكتور عبد الغفار مكاوي "واتجاه الفلسفة إلى مشكلات الواقع يفرض عليها أخيراً أن تتجه إلى الرأي العام، وهذا يحتم عليها أن تنازل قليلاً عن لغتها التقليدية لتتكلم بلغة مفهومه تفيد الحوار المشترك بينها وبين أبنائها "الجاحدين" كما تفيدها في توضيح أفكارها والإقناع بحججها، إن الوضوح لا يتنافى مع العمق، واللغة البسيطة ليست دوماً دون المستوى، ومن أراد أن يتجه إلى الشارع والسوق فلا بد أن تكون لديه القدرة على مخاطبة الشعب، إن شعوره بالمسئولية يدفعه إلى هذا، وتواضعه يجعله يتعفف عن اعتباره نزولاً إليه، كان سقراط متواضعاً وبلا غرور، والتفلسف على طريقة سقراط مستحيل بغير التخلي عن الغرور"⁽⁴³⁾، فهل نسمع تلك الرسالة، هل من بعث جديد لا لنمطية السؤال السقراطي ولكن لجوهر الغاية السقراطية، ذلك الجوهر الذي يتمتع بالبساطة، ويتسم بحسن الخلق، ويركب مركب العلم ويسير بشراع الفضيلة وتدفعه رياح التواضع لبنى البشر. إن سقراط الذي فهمناه، يمتلك العديد والعديد من الحلول لأزمات البشر اللامتناهية، فهل نستطيع بعث جوهر فلسفته من جديد ..

خاتمه :-

هناك العديد من الفلسفات التي دُرست قشورها فقط، ولم يُنقب أحد في أحشائها، ولعل فلسفة سقراط من ذاك النوع الذي لا يزال في حاجة ماسة إلى البحث والاستقصاء لاستكشاف جوانب جديدة في حياة سقراط النظرية والعملية ولعلنا نكون وضعنا إطاراً منهجياً للبحث في ماهية السؤال السقراطي، وتالياً يمكننا القول إننا خلصنا إلى النتائج التالية :

1- تركت النزعة الصوفية في الفلسفة الشرقية أثرها الواضح على سقراط في حياته العملية، لدرجه أن فلسفته النظرية طبقت في حياته العملية ..
2- كان لسقراط الفضل الكبير في تعديل مجرى التفكير الفلسفي من الغوص في الأساطير، ثم فلسفه الطبيعة لتوجيه الأنظار إلى البحث في الإنسان ..

3- مثلت الفلسفة السقراطية الجانب الإيجابي للتحويل كماً وكيفاً ومنهجاً واصطلاحاً، جوهرأً وعرضاً، وذلك بعكس الدور السلبي الذي تركه السوفسطائيون .

4- يُعد منهج السؤال السقراطي في حد ذاته إطاراً عاماً يصلح للعديد من الفلسفات، سواء تلك التي تعترف بسقراط وتُكن له احتراماً، أو تلك التي تحرف في صورته وحقيقته .

5- فارق كبير بين الصورة والمضمون ، بين الجوهر والعرض، بين القشرة واللباب، هو عينه الفارق بين الجدل السقراطي، والجدل السوفسطائي..
6- سيظل الباحثون على مدار الحياة يكتشفون يوماً بعد يوم جوانب مختلفة من حياة رجل عظيم، اسمه سقراط ...

*أستاذ بجامعة القاهرة

الإحالات:

- (1) نقلا عن د. احمد محمود صبحي، في فلسفه الحضارة، مؤسسه الثقافة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص.3
- (2) ايغاجيولوس موتسوبولوس، من الأسطورة إلى المنطق، ترجمه ودراسة وتعليق د/هدى الخولى، دار الثقافة العربية، القاهرة 2003، ص.25
- (3) نفس المرجع ص.26
- 4) fuller (b.a.g) :- history OF GREEK PHILOSOPHY (THATES TO DEMOCRITUS)
HENERY HOLT AND COMPANY NEW YORK 1923 P.16
- 5) Ibid .p.17.
- (6) ايغاجيولوس موتسوبولوس، المرجع السابق ص.40
- (7) نفس المرجع ص.46
- 8) Bogomolov (A.S):- history of ancient philosophy ,trans by :- v stankerich ,progress publishers, Moscow 1985.p.18
- 9) conford (f.m) :- "before and after socrat" Cambridge university press 1990.p.23
- (10) الدكتور عبد الرحمن بدوي، ربيع الفكر اليوناني، مكتبه النهضة المصرية القاهرة، 1946 ص.41 وما بعدها
- (11) د/ مصطفى النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012، ص.19
- (12) MC TICH (k) :- Socrates on desire for the good and the involuntariness of wrongdoing ,, an essay on the philosophy of Socrates ,by :h.h Benson ,Oxford university press ,new York ,1992 p.132.
- (13) فكره العقل المطلق استقيتها من كتابات الدكتور عبد الغفار مكاوي خاصة كتاب ملحه جلجامش، وكتاب لم الفلسفه.
- 14-Ehrenberg(V):-from solon to Socrates, and ed ,Methuen ,co .ltd ,London 1976.P.21.
- (15) د. هدى الخولى، الفلسفه اليونانية من القرن السادس إلى الرابع قبل الميلاد، مطبعة جامعه القاهرة، 2012، ص.162.
- (16) د. مصطفى النشار، مدخل إلى الفلسفه السياسية والاجتماعية، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012، ص.117.
- (17) وولف فرانسيس :- سقراط، ترجمه، منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط.1، 1993، ص.26
- 18-plato" meno" trans by :- g.m . grube hockett, publishing company, inc India ,1978, p. 73.
- 19)MC tiche ,op.cit, p.46.
- (20) د.هدى الخولى، الفلسفه اليونانية، المرجع السابق، ص.156.
- 21) Santas (G): the socratic paradoxes, the philosophical review 73,Aprrill, 1964, p, 136
- 22)Ibid ,p ,137
- 23) Vlastos(G): socrates (Ironie and moral philosopher) Cambridge University press, New York ,1992,p.,62.
- 24) Nahm (M.C):-selections from early Greek philosophy, 3rd ,Appleton century Inc , New York ,1967, p.
- 25)Vlastos ,op ,cit ,p, 72 .
- 26)MC tiche ,op ,cit ,p ,112
- (27) ريكس وورنر، فلاسفة الإغريق، ترجمه / عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة هـ. 1985، ص.64.
- 28) Seron (H.M):-socrat ,, The Great ,Macmillan ,, coltd, London ,1953.P.9.
- 29)santas (G):-op.cit.p.126.
- (30)د. هدى الخولى، تاريخ الفلسفه اليونانية، المرجع السابق ص.161.
- 31) Seron ,op.cit.p./136.
- 32)Ibid ,p, 137.
- 33)Burrt (J):- Early Greek philosophy, 4the adam ,charles& black ,London ,1975, P 163.
- (34) أفلاطون، محاوره بروتاجوراس، ترجمها إلى الانجليزية، بنيامين جويت، تعريب / محمد كمال الدين على، مراجعه د /محمد صقر خفاجه، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967، فقره 388.
- 35)Guthrie (W.C.K):- the Sophists ,1988,p.18
- (36) ريكس وورنر، المرجع السابق، ص.62.
- (37) فرنسيس وولف، المرجع السابق، ص.59.
- (38) نفس المرجع، ص.60.
- 39) Seron ,op ,cit, p, 118.
- 40) stone ,(I.F):- the trial of Socrates, U.S.A 1973.p.39.
- 41)Ibid, pp, 42, 43.
- (42)فرانسيس وولف المرجع السابق، ص.21.
- (43) د.عبد الغفار مكاوي، لم الفلسفه، منشأ المعارف، الاسكندرية 1971م ص.73.